وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

سورة المرسلات مكية

وهى خمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾

تقدّم ذكر السبب الذى من أجله يقسم الله تعالى ببعض خلقه . ومن أساليب القسم المختلفة فى القرآن هذا الأسلوب الذى افتتحت به هذه السورة .

ويشبهه القسم الذى افتتحت به سورة النازعات مذ قال تعالى : (والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) أقسم تعالى بالكواكب تسرع فى سيرها ، وتقطع مداراتها منتقلة من برج الى برج ، وتسبح فى الأجواء سبحا حثيثا . ومنها كواكب تسبق غيرها بإتمام دورتها كالقمر والأرض ، وهذه السابقات يكون من أثرها تدبير بعض الأمور الكونية كمعرفة الحساب والفصول .

ويشبهه أيضا القسم الذى افتتحت به سورة العاديات مذ قال تعالى : (والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا) أقسم بخيل الجهاد تعدو فيسمع لنفسها زفير ، وتقدح الحصا بحوافرها وهى عادية فيتطاير منها الشرر ، ثم تغير على العدو وقت الصباح فتثير إذ ذاك الغبار بشدة عدوها ، وحينئذ تفجأ جمع العدو وتتوسطه فتفرقه شَذَرَ مَذَرَ .

وقد أراد ابن دريد أن يتشبه بالقرآن فى قسمه بالخيل فى مقصورته المشهورة ، فأقسم أولا بالنياق تحمل الحجاج إلى بلد الله الحرام فقال :

أليَّةً باليَعْمُلَات يُرْتَمَى بها النجاءُ بين أجواز الفَلا

وبعد أن وصفها ووصفهم أقسم بالخيل تحمل الأبطال إلى ساحات القتال فقال :

بذاك أم بالخيل تعدو المُرَطَى   ناشزة أكتادها قُب الكُلَى
يحملن كل شَمَّرى باسل   شهم الجنان خائض غمر الوغى

أقسم الله بالكواكب فى سورة النازعات تنبيها إلى ما فى حركاتها ونظام سيرها فى مداراتها من المنافع والمصالح ، وأنها إنما خلقت لأجل هذا ولم تخلق لتكون آلهة تتصرف فى الأكوان كما يزعم عبدتها من الصابئة وغيرهم ، مشيرا إلى ذلك بما وصفها به من الأوصاف التى لا تجتمع قط مع أوصاف الألوهة .

وأقسم بالخيل فى سورة العاديات تنبيها إلى فائدتها ومالها من حسن الأثر فى خدمة البشر ، معظما شأنها فى ذلك من حيث يبعث على اقتنائها ، والعناء بتربيتها ، وتكثير نسلها .

أما ما أقسم به فى فاتحة هذه السورة — سورة المرسلات — فهو الرياح؛ إذ ليست الكواكب ولا الخيل السلاهب — بأبعد أثرا ، وأطيب نموا — منها فى خدمة الخلق وتوفير مصالحهم ، وتيسير أسباب معايشهم .

على أن الثلاثة المذكورات — الخيل والرياح والكواكب — أخوات متماثلات ، فى الحركة والنشاط وقطع المسافات : الخيل على سطح الغبراء ، والكواكب فى فسيح الخضراء ، والرياح ما بينهما فى أجواز الفضاء .

وليس المراد بالرياح المقسم بها مادة الهواء الجوى الذى يحيط بالكرة الأرضية ؛ فإن توقف حياة البشر على تلقف هذا الهواء واستنشاقه ظاهر لا يحتاج إلى قسم ولا إلى تنويه بالذكر . وإنما موضع الخفاء فى فائدة الهواء — إذا هو عصف وتموج واضطرب واندفع إلى مسافات بعيدة بحيث ينشأ عن اندفاعه أحيانا كثيرة تخريب وتدمير ، وبلاء مستطير ؛ يحمل بعض السذج على سب الرياح واستنكار أمرها ، والتساؤل عن الحكمة فى خلقها .

وإن فى هذه الرياح واضطرابها ،واختلاف مهابها — ما لا يحصى من المنافع وتدبير المصالح : من ذلك تسيير السفن فى البحار ، وسوق السحب الحافلة بالأمطار ، وتلقيح النباتات والأشجار ، وحمل البذور وتوزيعها فى الصحارى والقفار ،وقد ورد فى بعض الآثار أن أمة من الأمم تذمرت من الرياح وتتابُع هبوبها ، ورغبت إلى نبيها أن يدعو الله بألا يجعلها تهب على بلادهم ، فوعظهم نبيهم ، وخوفهم العاقبة ، ونبههم إلى ما فى الرياح العاصفة من المنافع لهم ، وأنه تعالى لم يخلقها عبثا ، ولم يرسلها سدى ، فأبوا إلا الدعاء ، فدعا الله فسكنت الرياح تلك السنة ،

فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾

فعقمت الزروع والنباتات فى حقولهم ، فلم تعقد ثمرا ، ولم تعط محصولا سوى التبن ، حتى عادوا فانتبهوا من غفلتهم إلى سوء فعلتهم ، وابتهلوا إلى الله فى إغاثتهم ، وتفريج كربتهم . وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تفصح عن مغزى صحيح فى فائدة الرياح وشمول النفع بها للبشر

قال تعالى : ﴿والمرسلات عرفا﴾ أى والرياح التى أرسلت وأطلقت هابة بعدطول ركودها وسكونها : يقال " أرسل الخيل فى النارة " إذا سرحها وأطلق لها العنان .

وقلما ذكر القرآن إطلاق الرياح إلا عبر عنه بفعل أرسل ، ففى سورة فاطر : (والله الذى أرسل الرياح) ، وفى الحجر : (فأرسلنا الرياح لواقح) ، وفى الأحزاب : (فأرسلنا عليهم ريحا) وفى الأعراف : (وهو الذى يرسل الرياح) ، وفى الروم : (ومن آياته أن يرسل الرياح) وفى آيات أخرى غيرها . فقوله تعالى هنا : (والمرسلات) من هذا القبيل .

أما قوله : (عرفا) فهو مثل لتتابع الرياح المرسلة ، وهبوب بعضها فى إثر بعض ، مأخوذ من عرف الفرس ، وهو اسم للشعر النابت فى محدب رقبته : يقال " اعرورف الفرس " إذا صار ذا عرف ، "واعرورف البحر تراكبت أمواجه ، فصارت كالعرف . و" اعرورف النخل" كثف والتف ، فأصبح كالعرف . و"جاء القوم إلى فلان عرفا واحدا " إذا توجهوا إليه كوكبة واحدة . و " أصبحوا عليه كعرف الضبع " إذا تألبوا عليه .

وإعراب (عرفا) على الحال من المرسلات : أى أقسم بالرياح حالة كونها متتابعة يقفو بعضها إثر بعض فى هبوبها .

وبعد أن يرسلها الله ويبعثها من سكونها تأخذ فى العصف بشدة . و[العصف] شدة الهبوب ؛ فالريح الواحدة عاصفة ، والجمع عاصفات . وعصفها يكون بعد إطلاقها وإخلاء سبيلها من دون تراخ . ومن ثم عطفه بالفاء فقال : ﴿ فالعاصفات عصفا ﴾ أى الشديدات الهبوب ، السريعات المر .

هذه الرياح إذا أطلقت وهبت على هذه الصورة أنشأت سحبا كثيرة تراها مبسوطة ومنشورة فى آفاق السماء . والذى نشر هذه السحائب وبسطها هنا وهناك فى فسيح السماء هو تلك الرياح العاصفة . وهذا هو معنى قوله تعالى فى صفتها : ﴿ والناشرات نشرا ﴾ .

فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾

وبعد أن تنشر الرياح السحب على هـذه الصورة تأخذ فى تفريقها وتوزيعها على البـلاد ، فتحيي مواتها ، وتخصب نباتها . والذى يفرقها ويوزعها هنا وهناك هو تلك الرياح المرسـلات العاصفات الناشرات . وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ فالفارقات فرقا ﴾ . و [الفارقات] اسم فاعل من فرق الأشياء إذا فصل أبعاضها . وفرق الشعر بالمشط إذا سرحه . ففرق الثلاثى كفرق الرباعى .

وقيل إن فرق فرقا للاصلاح : (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم) ، وفرق تفريقا للإفساد : (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) .

وما وصف الله به الرياح فى هـذه الأقسام من معانى الإرسال والنشر والفرق تضمنته آية سورة الأعراف مذ قال تعالى : (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) : فقوله هنا (المرسـلات) من [يرسـل] فى تلك الآية . وقوله (الناشرات) من [نشرا] على قراءة من قرأه بالنون . ومعنى (نشرا) متفرقة تعم جوانب الأرض جمع نشور كرسل فى جمع رسول ، وقوله (الفارقات) من [سقناه] : فإن معنى (سقناه) يرجع إلى معنى (فرقناه) أى أخذنا به ذات اليمين وذات الشمال لنحيي البلاد ، ونسقى العباد .

إن الأقطار التى تكثر فيها الأنهار المتدفقة ، والينابيع المتفجرة — قلما يفكر أهلوها فى أمر السحب والأمطار ، أو يشعرون بحاجة إليها ما دامت أراضيهم مضمونة الرى ، مكفية المؤونة . أما أهالى البلاد الأخرى الذين حرموا الأنهار ومياه السيح ، والذين يتوقف خصب نباتهم ورى زراعاتهم على ماء المطر ، ومقدار ما ينزل منه كل سـنة ، ويعلمون أن قلة الأمطار وانحباسها عنهم يعرضهم للجدب والتلف والهلاك — فهم لا يكادون ينظرون إلى الرياح المرسـلات تهب وتنشر السحاب وتبسطه فى أطراف السموات حتى تهتز بالفرح قلوبهم ، وتلهج بالذكر ألسنتهم . والذى يلق هذه الذكرى والبشرى على هؤلاء الناس إنما هو تلك المرسلات الموصوفة بما وصفها الله به من جميل الصنع ، وعميم النفع . وهذا معنى قوله تعالى فى ختام صفاتها ﴿فالملقيات ذكرا﴾ أى فهى بعد أن تفرق السحائب وتوزعها هنا وهناك على البلاد تلق فى قلوب سكانها أو على ألسنتهم ذكرا لمن أرسلها إليهم ، ومنّ بها عليهم .

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾

والبَشَر — وإن كانوا يذكرون الله حين يرون الرياح العواصف والسحب الحوافل — يختلف ذكرهم هذا باختلاف إيمانهم بالله وصفاته ، ومبلغ تصديقهم بوحيه ورسالاته ؛ فمنهم قوم يكون ذكرهم ﴿ عذرا ﴾ لهم عند ربهم فى محو سيئاتهم ، والعفو عن خطاياهم ؛ لأنهم إذا ذكروا الله قرنوا ذكره بالشكر له على ما أولى من الرحمة ، وأسبغ من النعمة . ومنهم آخرون يكون ذكرهم ﴿ نذرا ﴾ أى بمثابة الإنذار والتخويف لهم من سوء ما هم عليه من هذا الذكر الدال على كفرهم ، وفرط عنادهم ؛ إذ أنهم ينسبون حدوث هذه الرياح المرسلة ، والسحب الهاطلة — إلى أصنامهم وطواغيتهم تارة ، وإلى الأنواء وقرانات الكواكب تارة أخرى ، ويغفلون عن الفاعل الحقيق وهو الله تعالى .

وهكذا كان دأب أهل الجاهلية ؛ فإنهم كانوا إذ امطروا قالوا " مطرنا بنوء كذا " ، فنهى الشارع عنه ، وتقدّم بالوعيد فيه ، ونبه فى هذه الآية إليه مذ قال : (فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا) .

و[عُذْرا] مصدر عَذَرَ — الثلاثى — إذا محا الإساءة ورفع اللوم والعتب . و (نُذْرا) اسم مصدر لأنذر الرباعى إذا حذر وخوّف . وهما فى الإعراب بدل من (ذكرا) . والتقدير : إن تلك الرياح بإنشائها السحب الثقال تلقى فى نفوس الناس ذكرا . وهذا الذكر بينا يكون عذرا ماحيا ذنوب المؤمنين الموفقين — يكون أحيانا كثيرة إنذارا للجاحدين المبطلين . ففى الآية تعريض بمشركى العرب ، وتقبيح لما كانوا عليه من عبادة غير الله ، والغفلة عن الشكر له على آلائه ونعمه مذ نسبوها إلى غيره .

أقسم تعالى بهذه الرياح على أى شىء ؟ على أن ما أوعد به المشركين أمر لا ريب فيه ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ إنما توعدون ﴾ به أيها المكذبون من مجىء يوم القيامة والثواب والعقاب ﴿ لواقع ﴾ أى هو حق كائن لا محالة ؛ فلا تمتروا ولا تشكوا ؛ فقوله : (إنما توعدون الخ) جواب القسم .

وكما أقسم الله بالرياح العاصفة فى سورتنا هذه على أن ما أوعد به المكذبين واقع — أقسم أيضا بها نفسها فى سورة الذاريات بالأسلوب نفسه على أن ما أوعدهم به صادق ؛ فقال تعالى : (والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع) .

فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾

والمعنى : أقسم بالرياح التى تذرو التراب ذروا ، ثم لا تلبث أن ينشأ عن هبوبها آثار عظيما الفائدة للبشر : سحائب حاملات فى عنان السماء من ماء المطر حملا ثقيلا ، وسفائن جاريات على سطح البحر جريا سهلا ، وهذه السفائن أو مجموع هذه السفائن والسحائب فى مجيئها وذهابها وغدوها ورواحها تقسم فى أقطار البلاد ، أو توزع بين سكانها — أمرا عظيم الخطر ، عميم الأثر ، فى انتظام معايشهم ، وتوفير تكاليف حياتهم ، وأى شىء مما خلقه الله أنفع للبشر من الأمطار التى تحملها السحب فتسق بها زروعهم ، ومن ضروب الأقوات والأرزاق التى تجرى بها السفن ثم تقسمها بينهم ؟

قوله : ﴿فإذا النجوم الخ﴾ بيان وتفصيل لما أجمله فى قوله السابق : (إنما توعدون) من هول يوم القيامة (لواقع) ، فهو يقع على هذه الصورة : النجوم تطمس ، والسماء تفرج الخ .

[وطموس] النجوم ذهاب ضوئها ، والطموس إذا نسب إلى ما له نور كالشمس والقمر والنجوم كان بالمعنى المذكور ، وإذا نسب إلى العين كان معناه عماها وذهاب قوتها الباصرة ، وإذا نسب إلى القلب كان المراد ضلاله وحيرته ، وإذا نسب إلى المنزل أو الدار كان معناه امحاؤها وذهاب أثرها ، وهو لازم متعد يقال : طمسته أنا ، وطمس هو بنفسه .

ووصف النجوم بذهاب ضوئها يوم القيامة لا ينافى وصفها بالانكدار والانتثار فى آيتى : (وإذا النجوم انكدرت) ، (وإذا الكواكب انتثرت) و (انكدرت) بمعنى (انتثرت) يقال : "انكدر فى سيره" إذا أسرع وانقض ، و"انكدر القوم على فلان" جاءوه متتابعين ، ثم انصبوا عليه ، وليس هو من لون الكدرة ، فالنجوم يوم القيامة تنكدر وتتناثر ذاهبة الضوء فاقدة اللألاء واللمعان .

وفرج [السماء] كناية عن إحداث الشق بين أجزائها المتلاحمة ، يقال : "فرج الباب" إذا فتحه ، و"فرج بين الشيئين" أوسع بينهما وباعد ، وهذا معنى ما جاء فى آيتى : (إذا السماء انشقت) ، (وفتحت السماء فكانت أبوابا).

وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾

أما [نسف الجبال] فقلعها من أصلها وتفريق أجزائها : من "نسف الحب بالمنسف" إذا نفضه وذرّاه ، و"نسفت الريح التراب" قلعته وفرقته هنا وهناك . وهذا معنى ما جاء فى آيات (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ، (وبست الجبال بسا) ، (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) . والمعنى فى الكل أن الجبال تزحزح بشدة عن مقارّها ، وتعود كالفتات المتناثر ، والسفساف[1] المتطاير .

وقد وصف الوحى فى هذه الآيات ما يطرأ على العالم يوم خرابه : من اضطراب حبله ، وانتكاث فتله ، وتبدّل نظامه ، وزوال تماسكه وإحكامه ، والله تعالى وحده يعلم بأية الطرق والأسباب يحصل ذلك الخراب ، فعلى المسلم أن يؤمن به ، ويكل أمر كنهه وتفصيله إلى ربه .

هذا ما يكون من شأن السماء والأرض فى ذلك اليوم الموعود ، أمّا ما يكون من شأن الخلائق يومئذ فإن الأمر أهمّ ، والخطب أطمّ ، والخوف أعمّ . ذلك أنه لا يعفى فيه أحد من السؤال والحساب حتى الرسل أنفسهم عليهم السلام ، فإنهم يغشون ذلك الموقف الرهيب فى وقته المعين الذى كانوا ينتظرونه ، فيشهدون على أممهم ، ويبرئون أنفسهم من تبعة التفريط فى تبليغهم ، والتقصير فى إمحاض النصح لهم ، وهذا معنى ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ وأصله "وقتت" من الوقت ، وأنث الضمير باعتبار الجماعة ، أى جُعل لجماعة الرسل وقت معلوم لا يتعدّونه ، والعرب تعاقب بين الواو والهمزة ، فيقولون : "وكد الخبر وأكده" ، و"وقت الصلاة وأقتها" وفى الأسماء : وشاح وإشاح ، ووعاء وإعاء ، ووكاف وإكاف ، ووسادة وإسادة .

وفى التأقيت معنى التأجيل ، بل يقولون أحيانا : "وقت الأمر ليوم كذا" إذا أجله إليه ، فلما قال إن الرسل أقت لها ميقات تشهده فى حينه حسن أن يقع السؤال عن ذلك الميقات الذى أقت ، والأجل الذى ضرب ، فقال تعالى : ﴿لأى يوم أجلت﴾ تلك الرسل ؟ ، وفى العدول عن "وقتت" إلى (أجلت) — وهما بمعنى واحد — تفنن فى الخطاب ، وتطرئة للأسلوب ، كما أن فى الاستفهام عن ذلك اليوم المضروب موعدا لقيام الساعة تفخيما لشأنه ، وتهويلا لأمره .

(١) سفساف الدقيق ما ارتفع من غباره عند النخل ، وسفساف التراب ما رق منه .

لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾

ثم أجاب عن هذا السؤال بأن الرسل أجلت ﴿ليوم الفصل﴾ ، أى ليوم القضاء الفصل ، أو الحكم الفصل ، ومعنى كون الحكم فى ذلك اليوم فصلا أنه لا معقب له ، ولا محاباة فيه ، بل تستقر النفوس عنده ، وتطمئن القلوب إليه ، وذلك منذ ينكشف عنها الغطاء ، فترى الحقائق عيانا ، ويصبح علمها ضروريا ، ويتحوّل جحودها إيمانا .

ولم يكتف بتفخيم شأن ذلك اليوم ، يوم الفصل بالاستفهام عنه ، بل عاد فنوّه بشأنه ، ونبه إلى عظم هوله بقوله : ﴿وما أدراك﴾ أى ما أعلمك — أيها الإنسان — ﴿ما يوم الفصل ؟﴾ : ما كنهه ؟ وأى يوم عظيم هو ؟ وعجيب منك أن تتغافل عنه ، وتلهو عن العمل له ، حتى كأنك من شدّة تهاونك ، وفرط غفلتك — أصبحت على بينة من أمر النجاة فيه . كلا ! فإن ذلك اليوم أعظم من أن يدرى أمره إنسان ، أو يحيط به عقل أو جنان .

وجواب (فإذا النجوم الخ) محذوف موكول فهمه إلى فطانة السامع . والحذف على هذه الصورة من أساليب الإيجاز التى امتاز بها القرآن .

وهو إما أن يقدّر بمعونة آية (إنما توعدون لواقع) السابقة ، والمعنى : إذا طمست النجوم وجرى كيت وكيت فإذ ذاك تعلمون صحة الوحى الإلهى ، وصدق ما وعدكم به من مجىء يوم القيامة ، فتؤخذون بإجرامكم وسوء أعمالكم ، ويهتف من فوق رءوسكم : ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ، أى هلاك عظيم وخسار كبير فى ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود ، أو يقدر الجواب بمعونة آية : (ويل يومئذ للمكذبين) اللاحقة ، والمعنى : إذا طمست النجوم وجرى كذا وكذا ، فهناك تعلمون مبلغ ضلالكم عن الحق وإغراقكم فى الجحود واستحقاقكم للويل والهلاك على تكذيبكم . وعلى هذا يكون فى قوله تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين) إشارة للجواب ودلالة عليه .

بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة وأنه كائن لا محالة ، وبعد أن خوّف المكذبين من شدّة هوله وفظاعة مايقع فيه — عاد يخوّفهم من بطش الله على أسلوب آخر فقال : ﴿ألم نهلك﴾ الأقوام ﴿الأوّلين﴾ الذين كانوا فى أبعد أزمنة التاريخ ، فكذبوا وحيي ، وعصوا رسلي ؟ ﴿ثم﴾ بعد أن

ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

أهلكناهم ألم ﴿ نتبعهم الآخرين ؟ ﴾ أى نجعل الأقوام المتأخرين عنهم فى الزمن ممن كانوا مثلهم فى التكذيب والعصيان تابعين لهم فى الهلاك فأصابهم ما أصابهم ؟ وكان الظاهر أن يقول : " أما أهلكنا ... ثم أتبعنا ... ؟ " لكنه عدل إلى المضارع إحضارا للحال الماضية فى الذهن وتصويرا لها فى أنفس المخاطبين ، حتى كأنهم يرون الآن مصارع الهالكين .

والمعنى أنكم أيها المكذبون بالقرآن أو بمحمد عليه الصلاة والسلام تعرفون ذلك من فعلنا بالأمم الماضية ، فلماذا لا ترجعون عن تكذيبكم ؟ وتكفكفون من غرب عنادكم ؟

وما فعله تعالى بالأمم السابقة يفعله فى كل أمة تسلك مسالكهم فى الجحود والعناد والإعراض عن الحق . فهو ناموس عام يأخذ بالقهر كل من قاومه ، واعترض فى سبيله . وهذا هو معنى قوله ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الفعل الذى فعلناه بالأولين والآخرين ﴿ نفعل بالمجرمين ﴾ من إخوانهم السائرين على مثل طريقتهم . وفيه تعريض بمشركى قريش ، وإيقاظ لهم من غفلتهم ، وتنبيه إلى أنهم إن بقوا فى غشمرتهم فسوف ينزل بهم ما نزل بغيرهم .

وقوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ تهديد للمجرمين الذين لا يرعوون ولا يُصْغُون إلى نداء الحق ، وتنبيه إلى أنه تعالى إن أراد إنفاذ مشيئته فيهم كما أنفذها فيمن قبلهم فإن الويل والهلاك الشديد يكون من نصيبهم جزاء تكذيبهم ، فليتنبهوا للأمر ، وليحذروا من الخطر قبل وقوعه .

وجملة (ويل يومئذ للمكذبين) قد تكررت فى هذه السورة ، وتخللت آياتها عشر مرات ، كما كان فى سورة الرحمن من تكرير آية (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) . وقد حسن التكرير فى سورة الرحمن للتقرير بالنعم المختلفة التى كان الوحى يعدّدها واحدة واحدة ؛ فكلما ذكر نعمة قرر بها ، ووبخ على الغفلة عنها ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك بأن منحتك الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن أنقذتك من الأهوال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت لأجلك كذا وكذا ؟ فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرر به .

وهذا التكرير فى الحض على شكر النعم فى سورة الرحمن كالتكرير فى سورتنا هذه : من حيث إنها تضمنت ذكر نعم مختلفة ، ونقم متعددة . فكان إذا ذكرهم بنعمة ، أو خوفهم من

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾

نقمة — أكد التـذكير والتخويف بذكر الويل والهلاك المهيأ للمكذبين الذين استخفوا بهـذه النعمة ، أو تهاونوا بتلك النقمـة ، فيكون ذلك رادعا للخاطبين عن الغفـلة ، وزاجرا لهم عن التمـادى فى التكذيب ، وركوب الرأس فى العناد .

وتكرير جملة واحدة و إعادتها مرارا فى خلال الكلام الواحد مألوف للعرب ، معهود فى خطبهم وأشعارهم ؛ فمهلهل بن ربيعة رثى أخاه كليبا بشعر قال فيه :

وهمـام بن مرة قد تركنا عليـه القشْعُمانَ من النسور

على أن ليس عدلا من كليب إذا طرد اليتيمُ عن الجزور

ثم كرر قوله (على أن ليس عدلا من كليب) زهاء عشر مرات .

ولـما حَمِيَ الحرث بن عباد من بغى مهلهل وسفكه الدماء قال أبياته المشهورة التى يقول فيها : (قربا مربط النعامة منى)، وكرر هذه الجملة عدّة مرات .

وفى هـذا التكرير من هز السامع والتأثير فى نفسه ، ما لا يخفى على المتأدب المتذوق من لغة العرب ، وما فيها من كل معنى عجب .

قوله : ﴿ ألم نخلقكم الخ ﴾ تذكير للمكذبين ، وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أن من خلقهم من ماء مهين بهـذه الطريقة لا بد أن يكون قادرا على إعادة خلقهم للبعث والحساب ؟ لاجرم أنه تعالى قادر ، وهو أيسر عليه ، وأن المكذبين بذلك يستحقون الويل والهلاك .

ومراده بـ﴿ المـاء ﴾ الموبهة التى يتكوّن منها الإنسان و﴿ مهين ﴾ على وزن فعيل ، ومعناه حقير أو ضعيف أو قليل ، وفعله مهن فهو مهين .

و﴿ القرار ﴾ الذى جعل الله فيه ذلك المـاء المهين هو الرحم ، مصدر قَرَّ بالمكان قرارا إذا ثبت وسكن ، ثم شاع استعماله فى نفس المكان الذى يكون فيه الثبات والاستقرار : يقال : "صار الأمر إلى قراره" أى إلى حيث تناهى وثبت . وقال تعالى : (جعل لكم الأرض قرارا) أى موضع قرار وثبات . و﴿ مكين ﴾ فعيل من تمكن بالمكان إذا رسخت قدمه فيه . وحَقُّ (مكين) أن يوصف بها المـاء الذى جعل فى القرار ، لأنه هو الذى تمكن من القرار ، لا القرار نفسه ، لكنه جُعل من صفته على المجاز والتوسع ، كما يقال "نهر جار" : جعلوا الجريان من صفة النهر ، والنهر الشق

إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

فى الأرض ، وإنما الجريان من صفة الماء . ومعنى كون الماء مكينا فى الرحم أن يستقر فيه بوضع محكم ونظام ثابت يحفظه من الفساد والتغير ، ويهيؤه لقبول التطورات المختلفة حتى يصبح جنينا ، ثم يولد بشرا سويا .

ويحتمل أن يكون (مكين) صفة لقرار الذى قلنا إن المراد به الرحم .ومعنى كونه مكينا أنه وضع من جوف المرأة ومطاوى أحشائها بحيث يكون صالحا لاستيداع النطفة ، مصونا مما يفسد عليه عمله ، ويحول دون قيامه بوظيفته .

والماء الذى جعل فى الرحم يستمر بعد أن يستقر فيه ﴿ إلى قدر ﴾ أى إلى مقدار من الزمن ﴿معلوم﴾،أى معين محدد . وقالوا فى تلك المدة إنها من ٢٧٣ يوم — وهى عبارة عن تسعة أشهر شمسية — إلى ٢٨٠ يوم ، وهى عشرة أشهر من الشهور القمرية ، أو أربعون أسبوعا .

ثم إن هذا الترتيب فى جعل الماء المهين فى الرحم ،وضرب أجل معين له حتى ينضج ويختمر وينشأ خلقا سويا ، وإنسانا مفكرا أحوذيا [1] — دال على مالخالق جل شأنه من صفات الحكمة والتدبير والتقدير التى يستحق عليها سبحانه وتعالى أعظم مدح وأكرم ثناء . ومن ثم قال تعالى : ﴿ فقَدَرْنا ﴾ بالتخفيف ، وهو بمعنى ”قدّرنا“ بالتشديد . وقرئ بالتشديد أيضا ، ﴿فنعم القادرون﴾ نحن ، أى المقدّرون . يقال ”قَدَرَ الشيء“ ، ”وقدّره“ بمعنى واحد ، هو تهيئة الشيء ، وضم أجزائه ، والتأليف بينها على مقاييس ومقادير ونسب وأوضاع محكمة مدبرة ، تبلغ بذلك الشيء درجة كماله ، وإيفائه الوظيفة التى أوجد لأجلها . وهكذا الشأن فى أمر التوليد والولادة وتكوّن الجنين فى الرحم وتطوّره فى الأشكال المختلفة — كل ذلك بترتيب عجيب ، وتدبير غريب ، يشهد بسمو الحكم الإلهية ، وجليل النعم الربانية ، التى يستحق مكذبها والممارى فيها الويل والخسران .

وجعل بعض المفسرين (قَدَرْنا) بالتخفيف من القدرة لا من التقدير . والمعنى : إننا قدرنا على ما أردنا من جعل النطفة فى قرار مكين إلى انتهاء الوقت الذى تستوفى فيه كمالها من التدبير وحسن التصوير ، (فنعم القادرون) : أى نعم أصحاب القدرة نحن ، الجديرون بالحمد والثناء ، المستحقون لجميع ضروب العبادة والدعاء ،فالويل للمكذبين بقدرتنا ، الممارين بوعدنا ،ومحكم آياتنا .

(١) (أحوذيا) أى حاذقا ، مشمرا للأمور ، قاهرا لها : يسوقها أحسن مساق بحيث لا يشذ عليه شيء منها .

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾

قوله : ﴿ ألم نجعل ... الخ ﴾ تذكير بضرب آخر من ضروب نعم الله على الخلائق ، وعجيب صنعه فى تدبير شئونهم ، وتيسير راحة الحياة بل الممات لهم ، بحيث يستحق المعرضُ عن ذلك ، والمكذب بما للرب فيه من المنة والفضل — الويلَ والخسار . من ذلك أنه تعالى جعل الأرض التى يحيى فيها البشر ويموتون صالحة لتقلبهم على ظهرها فى حياتهم ، ولاندماجهم فى بطنها بعد مماتهم فهى تكفتهم وتضمهم إليها أحياء منتشرين فى أعمالهم ومختلف أشغالهم ، كما تكفتهم وتضمهم إليها أمواتا لا روح فيهم ، فتحفظ عوارهم ، وتصون كرامتهم ، فلا يبقون على ظهرها أشلاء ممزعة كجيف الحيوان : تنقبض منها النفوس ، وتنتابها الكلاب والوحوش . وقد جاء هذا المعنى فى آية : (ثم أماته فأقبره) أى أمات الله الإنسان موتا مميزاً عن موت سائر أنواع الحيوان ، وذلك بأن جعل له من جوف الأرض قبرا يُوَارى فيه تكرمة له ، فلا تتناوشه السباع ، ولا يبقى نصب أعين أهله وذويه ، فيسوء عيشهم ، وتتنغص حياتهم كلما رأوه مطروحا أمامهم .

و﴿ كفاتا ﴾ مصدر كفت الشيء إلى نفسه ضمه ، وهو الذى نصب ﴿ أحياء وأمواتا ﴾ على المفعولية . أما من جعل (كفاتا) اسمـا بمعنى الموضع الذى يكفت فيـه الشيء ويضم كالوعاء والصوان فان (كفاتا) حينئذ لا تنصب (أحياء وأمواتا) بل ناصبهما فعل محذوف دل عليه (كفاتا) كأنه قال : تكفت أحياء وأمواتا . ونكر (أحياء وأمواتا) لتعظيم شأنهما ، وأنهما جميعا بلغوا فى الكثرة مبلغا لا يعدون معه ولا يحصون .

ويصح أن تكون (أحياء وأمواتا) منصوبة على الحال ، فإنه قال : تكفتكم حالة كونكم أحياء وأمواتا . أما كون الأرض تضم الأموات إلى صدرها وتكون كفاتا لهم فأمره ظاهر ، ولكن ما معنى أنها تضم الأحياء إليها ؟ وكيف تكون كفاتا لهم وهم منتشرون فوق ظهرها ، متفلتون إلى كل جانب من جوانبها ، لا حواجز تصدهم ، ولا سدود تقوم فى وجوههم ؟ قيل فى الجواب : إن المراد بكون الأرض كفاتا للأحياء أن منازلها ومساكنها كفات لهم ، تضمهم بين جدرانها للبيتوتة والراحة والسكنى ، كما أن المقابر كفات للأموات تضمهم بين جوانبها .

وأرى أن اكتشاف ناموس الجاذبية العام الذى بموجبه تجذب الأرض إليها ما على ظهرها من البشر والدواب وسائر الأشياء ، والذى لولاه لطاروا وتبددوا شذر مذر فى الفضاء ، بسبب

وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ

حركة الأرض اليومية على نفسها ، وحركتها السنوية حول الشمس بسرعة فائقة الحد — هذا الاكتشاف يفسر لنا معنى ما قرره الكتاب الإلهي من أن الأرض كفات للأحياء مذ يكونون على ظهرها ، فإنها تجذبهم إليها ، وتضمهم إلى صدرها كما تفعل الأم الحنون ، فلا تدعهم يتفلتون وهم بذلك لا يشعرون .

ومن النعم والآلاء ، التي ذَكَّر الله بها المكذبين ، وحضهم على التأمل فيها والشكر عليها — الجبال ، مذ قال تعالى : ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي في الأرض جبالاً ﴿رواسي﴾ : ثوابت رواسخ ، ﴿شامخات﴾ باذخات ، ذاهبات في السماء صعدا ، والنعمة في هذه الجبال من حيث إنها كالأوتاد للأرض في حفظ موازنتها ، ورسوّ جوانبها ، واعتدال أقطارها ، فهي تقيها الاضطراب والجيشان والميدان ، كما تقي أوتادُ الخيمةِ الخيمةَ من مثل ذلك . وقد كشف الوحي عن هذا المعنى فقال في سورة النحل : (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) . ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض بما في جوفها من الغازات المحتقنة ، والبخارات المنضغطة ، والمواد المتراكمة المشتعلة — دائمة الاضطراب والخفقان .

وقد يقول أرباب العلم الطبيعي في بعض ماذهبوا إليه : إن هذه الجبال إنما نشأت عن زلازل الأرض ، وتكونت من اندفاع حممها وموادها السائلة من باطنها إلى ظاهرها ، فكيف تكون سبباً في ثباتها وقرارها ؟ والجواب أن اندفاع تلك المواد السائلة ، ونشوء الجبال عنها — لما كان سبباً في تثبيت الأرض وتسكين زلزالها واضطرابها كانت الجبال بهذا الاعتبار — لا باعتبار ذاتها وهي قائمة على وجه الأرض — كالأوتاد في تثبيتها ، ومنع مَيَدانها . ولو بقيت المواد التي تكونت منها الجبال مستكنة في جوف الأرض ، ولم تنبعث من باطنها ، وتتراكب جبالا على ظاهرها — لبقيت الأرض دائمة الاهتزاز والاضطراب ، مستمرة الحركة والميدان ، فتكون الجبال إذن نعم المسكّن لخفقان قلب الأرض ، المريحها من قلق بالها ، وهزة زلزالها ، وعبء أثقالها .

على أن في خلق الجبال الشوامخ نعمة أخرى هي نشوء السحب فوقها ، وهطول الثلوج والأمطار عليها ، فتتكوّن بسبب ذلك الأنهار والجداول والينابيع ، ثم تكثر الزروع والأشجار

وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾

والمراعى وضروب النبات ؛ فالجبال مخازن الثلوج والأمطار ، ومستودعات عامة للبركات والخيرات ، وكل بلاد تقل فيها الجبال تقل فيها الأمطار ، فيقل الزرع والخصب ، وتكثر الصحارى المرملة ، ويعم الجدب . وانظر كيف إنه تعالى بعد أن ذكر نعمة الجبال الشامخات قال ﴿ وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ أى عذبا بالغ العذوبة — للإشارة إلى أن الحكمة فى خلق الجبال هى أن تكون مستودعات للمياه والأمطار، ومادة للعيون والجداول والأنهار التى نستق منها .

وقلما ذكر القرآن الجبال إلا أعقبها بذكر الأنهار والينابيع . وليس ذلك إلا إشارة لما قلنا : من أن الجبال الشوامخ وسائل للماء ، ومصايد لبركات السماء .

وإنما قال : (وأسقيناكم) ، ولم يقل : "وسقيناكم" لأن فعل "سقى" الثلاثى أكثر ما يستعمل فى الماء الذى يعطاه الإنسان لشربه ، أما "أسقى" فأكثر ما يستعمل لما يعطاه لشربه ولشرب ماشيته وسقى زراعته . وهذه المياه التى جادت بها العناية الإلهية علينا بواسطة الجبال إنما كان النفع بها عاما شاملا لنا ولأنعامنا وزروعنا وبساتيننا ، ولغسل أجسامنا وثيابنا وسائر أمتعتنا .

وَوَصَفَ الماءَ بالفرات وهو الشديد العذوبة لأن المياه التى تتفجر من صخور الجبال تكون أعذب من المياه التى تحلب فى السهول والاحساء[1] .

قوله : (انطلقوا الخ) خطاب للمكذبين المذكورين فى قوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ، أى أن الويل يوم القيامة سيحيق بأولئك المكذبين بآيات الله ، الكافرين بنعمه ، ويقال فى ذلك اليوم لهم وقد أصبحت دار العذاب تحت مواقع أبصارهم : ﴿ انطلقوا ﴾ أيها المكذبون ﴿ إلى ما ﴾ أى عذاب ﴿ كنتم به ﴾ فى دار الدنيا ﴿ تكذبون ﴾ . وهذا العذاب الذى أمروا الانطلاق إليه هو بالطبع عذاب جهنم ، لكنه تعالى وصف فى هذه الآية شكلا جديدا من أشكاله ، ومظهرا بدعا من مظاهره وأحواله ؛ فقال لهم مكررا على أسماعهم الأمر الأول :

(١) جمع حسى ، وهو سهل من الأرض تستنقع مياه الأمطار تحت رماله .

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾

﴿ انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ﴾ . سمى العذاب ظلا تهكما واستهزاء بالمعذبين ، بدليل أنه وصفه بأوصاف لا تجتمع قط مع أوصاف الظل . الظل الذى يتفيؤه الإنسان ويتخذه مقيلا لراحته ودعته — هو كالظل الذى وعد به أهل اليمين ، وهم فريق الأبرار مذ قال تعالى فى سورة الواقعة : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب) . ومعنى كون الظل الذى يتفيؤه هذا الفريق ممدوداً أنه منبسط ممتد لا يتقلص من جوانبه ، ولا ينثلم من أطرافه ، ولا ينفذ إليه الحرور من أية جهة من جهاته . أما ظل فريق الفجار فهو بئس الظل . وقد وصفه أيضا فى سورة الواقعة فقال تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم) : فقوله : (ظل من يحموم) أى من دخان أسود قاتم . ومن كانت فوقه ظلة من مثل هذا الدخان كيف يقال إنه فى هناء وراحة ؟ وكيف يصح أن يسمى ما هو فيه ظلا إلا على طريق التهكم والاستهزاء ؟

ذلك الظل اليحمومى الذى ذكره الوحى فى سورة الواقعة ، والذى قال إنه من نصيب أصحاب الشمال — أعاد ذكره فى سورتنا هذه — المرسلات — وقال إن المكذبين يؤمرون يوم القيامة بالانطلاق إليه واصفا له بقوله : (ذى ثلاث شعب) ، يريد أن اليحموم من دخان جهنم الذى انعقد كالظلة على رءوس المكذبين لا ينبسط ولا يمتد من فوقهم كما يمتد وينبسط الظل الممدود من فوق أصحاب اليمين ، بل يتخرق وينثلم وينشعب إلى ثلاث شعب أو ثلاث ذوائب . كما هو شأن الدخان المتكاثف إذا خلى ونفسه فى الفضاء . وبديهى أنه إذ ذاك ﴿ لا ﴾ هو ﴿ظليل﴾ يظل من يكون تحته ويقيه أوار الحر كما هى عادة الظلال كلها وخاصة الظل الممدود من فوق رءوس السعداء ، ﴿ولا﴾ هو أيضا ﴿يغنى﴾ عن الجهنميين المستظلين به ويقيهم ﴿من اللهب﴾ أى ألسنة النار المندلعة إليهم من كل جانب . فما هذا الظل الملعون ؟ وأنى يكون للمستظل به راحة وسكون ؟

وقال أبو مسلم الأصفهانى : يحتمل أن يكون المراد من شعب الظل الثلاث أوصافه الثلاثة المذكورة بعده وهى أنه ليس بظليل ، وأنه لا يغنى من اللهب ، وأن ناره أو شُعَبه ترمى بشرر كالقصر .

وفعل [يغنى] هذا بمعنى قولهم " لا يغنى عنك فلان شيئا " أى لا يجدى ولا ينفع ولا يفيد . وهو يتعدى بعن ، و (عن) فى الآية مقدّرة مع مجرورها كما أشرنا . و [من اللهب] متعلق بيغنى لتضمنه معنى الوقاية والحفظ كما أشرنا إليه أيضا .

إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾

وذهب قطرب إلى أن اللهب هنا بمعنى العطش لا بمعنى الشواظ الذى يعلو النار ، يقال : لهب الرجل لهبا ولهبانا إذا عطش فهو لهبان، والمعنى عليه: إن ذلك الظل لا يظل من وهج الحر، ولا ينفع فى تخفيف العطش كما هى عادة الظلال الباردة .

فَهِمَ المخاطبُ من أوصاف الظل فى الآية السابقة أنه ظل جهنمى ، وأن المراد به الدخان المنعقد فى سماء جهنم ، فلم يعد يتردد فى كون ضمير ﴿إنها ترمى﴾ المؤنث — عائدا إلى جهنم أو دار العذاب . على أنه يصح أن يرجع الضمير المذكور إلى قوله (ثلاث شعب) التى قلنا إن المراد بها ذوائب اليحموم المتكاثف فى سماء تلك الدار ، فهو دخان لا كالدواخن[1] المعقودة، وله صفات غريبة غير معهودة ، من ذلك (أنها) أى شعب اليحموم وذوائبه (ترمى) على المستظلين بها من آونة إلى أخرى ﴿بشرر﴾ جمع شررة ، وهى ما يتطاير من النار أثناء تلظيها ، وكل واحدة من هذا الشرر ﴿كالقصر﴾ أى كالبيت المبنى .

وقد يستعظم السامع هذا الوصف ، ويستغرب تشبيه الشرر بالقصر ؛ لأنه إنما يفهم من القصر حسب المشهور فى معناه — البناءَ العظيم المشرف ، فيقول كيف تكون الشررة الواحدة المتساقطة من ذلك الدخان أو من تلك النيران كالقصر؟ بل ربما ذهب خياله إلى قصور الملوك الباذخة ، ذات الشُّرَف والقمم والأبراج الشامخة ؛ فيستغرب الوصف ، ويستبعد الأمر ، ولكن القصر إن كان يطلق فى لغة العرب على هذا الضرب من المساكن الشامخة فإنه يطلق على كل بيت من حجر ولو كان صغيرا لاطئا ، بل قال ابن عباس رضى الله عنهما : " إن تشبيه الشرر بالقصور وارد على ما هو المعتاد فى بلاد العرب من جعل قصورهم قصيرة السمك - أى قليلة الارتفاع - جارية فى هيئاتها وشكلها مجرى الخيام اه " وقد لمح أبو العلاء المعرى قول ابن عباس هذا فقال يصف نارا عظيمة ويشبه شررها بالخيام :

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطراف[2]

(١) يجمع دخان على دواخن كما يجمع عثان (أى غبار) على عواثن ، وليس لهما نظير فى هذا الجمع الشاذ .

(٢) (الطراف) الخيمة من الجلد المدبوغ .

كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

وقد فسر بعضهم (القصر) الذى شبهت به الشرارة — بجزل الحطب ، أى بالغليظ من أعواده وكأن هذا القائل استبعد أن يكون المراد بالقصر البيت المجرى لما ذكرنا آنفا ، مع أن تفسيره به من أحسن التشابيه ، وأشدها انطباقا على ما كان مألوفا للعرب فى ذلك العهد . وكثيرا ما شبه شعراؤهم النياق بالقصور ، قال عنتره :

فوقفت فيها ناقتى فكأنها فَدَنٌ[1] لأقضى حاجة المتلوم

وقال امرؤ القيس :

ولما أن جرى سمن عليها كما طينت بالفَدَن السَّياعا[2]

يريد أن ناقته لما سمنت كان اللحم متراكبا عليها تراكب الطين على جدران القصر .

وقال الأخطل :

كأنها برج رومى يشيده لُزَّ بجص وآجُرٍّ وأحجار

وقالوا فى وصف نياق أو أفراس : " إن وقفن فمجادل ، أو مررن فأجادل " والمجادل القصور ، والأجادل الصقور .

ثم ذكر الكتاب لشرر جهنم تشبيها آخر غير تشبيهه بالقصر فقال : ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ أى كأن شرر جهنم المتطاير عنها [جمالات] جمع جمل وهو الحيوان المعروف ، أو هو جمع جمال كما قالوا فى رجل رجال ثم رجالات ، ومن جموع جمل أيضا جمالة ، وقرئ به أيضا (كأنه جمالة صفر) .

شبه الشرارات بالجمالات فى عظمها ولونها ، ثم فى كثرتها وانتشارها هنا وهناك : فى المرعى وفى تتابع بعضها إثر بعض وهى سائرة فى قطارها . وهكذا الشرارات ، تنبعث الشرارة إثر الشرارة أثناء تلظى نارها ، و[الصفر] ذات اللون الأصفر المعروف ، أو المراد بالصفرة هنا السواد الضارب إلى صفرة ، فان هذا اللون هو اللون الغالب فى ألوان الإبل عند العرب ، والعرب يستعملون وصف [الأصفر] فيما كان لونه كالذهب والزعفران ، وفيما كان لونه أسود كالغراب والدخان

(١) (الفدن) بفتحتين القصر . (٢) (السياع) الطين بالتبن .

فهو من أسماء أو صفات الأضداد ، حتى فسر بعضهم قوله تعالى فى وصف بقرة بنى إسرائيل (صفراء فاقع لونها) بأنها سوداء خالصة اللون .

وكما جعل بعض المفسرين (القصر) فى الآية بمعنى جذوع الحطب الضخمة لا البيوت المعروفة كذلك جعل بعضهم (الجمالات) جمع الجمل بمعنى القَلْس لا الحيوان المعروف ، والقلس حبل السفينة الضخم ، وقال إن الكتاب يُشَبِّه الشررَ فى تتابعه وتلاحقه واتصال كل شرارة باختها بحبال السفن الضخمة البالغة الغاية فى الثخانة والطول ، فشرارات نار دار العذاب ترى فى ضخامتها وتماسكها ولونها الأصفر الضارب إلى السواد — كالقُلُوس ، أى حبال السفن التى هذه صفتها .

والحاصل أن الوحى الإلهى شبه شرر جهنم فى كبرها ولونها بالقصور والجمال ، أو بجذوع الحطب والحبال .

ولا تعجب من قرن الجمال الصفر بالقصور الحمر فى الذكر ، ولا من الجمع بينهما فى التشبيه فانك إذا نظرت إلى قرية من قرى العرب وقصورها ، أى أبياتها الصغيرة اللاطئة المحمرة أو المصفرة بلون طينها أو ترابها أو حجارتها وهى منتشرة هنا وهناك فى جنبات السهل الأفيح ، ويتخللها أو يسرح فى كل جانب من جوانبها نياق وجمال مصفرة اللون أو مسودّته ترعى وتتناول بمشافرها أوراق الشيح والقيصوم تارة هنا وطورا هناك — إذا وقع نظرك على ذلك لمحت من بعد فى آن واحد أجساما صغيرة حمراء أو صفراء أو سوداء تتراءى لك من خلال الكلا والعشب الأخضر: هذه البيوت هنا ، وهذه الجمال هناك فى مشهد واحد ، وإذ ذاك لا تعود تستبعد تشبيه الشرارات الجهنمية بتلك الأبيات والجمالات ، ولا تستغرب قرنهما معا فى الذكر ، بل تستحلى ذلك وتعجب به .

وأمر هذه التشابيه ، ووقعها فى النفوس ، وقربها أو بعدها من الأذواق — مرجعه الألفة والاعتياد . ومقدار تأثر الحواس والمشاعر بها . وهذا منشأ خطأ الكثيرين — لا سيما الذين يجهلون أحوال العرب ، وأطوار معايشها ، وأساليب حياتها — فى حكمهم على القرآن وبلاغته مذ يرونه يصف وصفا ، أو يطلق قولا ، أو يورد تشبيها ، أو يحكى قصة غير مألوفة لنا اليوم ، ولا مما جرينا عليه فى أساليب كلامنا ، ولا مما اعتدنا أن نشعر به فى حياتنا وأطوار اجتماعنا . ويكون السبب فى قصور حكمهم مخالفة ما نحن عليه لما عند أولئك العرب المخاطبين بالقرآن ، الذى روعى فى آياته وأساليب خطابه ما اعتادوه وألفوه هم ، كما قال ابن عباس فى تشبيه شرر النار بالقصور : " إنه وارد على ما هو المعتاد فى بلاد العرب من جعل قصورهم قصيرة السمك جارية فى هيئتها وشكلها مجرى الخيام " .

هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾

ولعل ابن عباس إنما قال هـذا بعد أن رأى ما رأى من قصور الشام والعراق التى يستحلى شعراؤهم أن يشبهوها — مذ يرونها مبثوثة بين المروج — بالدر بين الزبرجد ، قال شاعرهم :

لاحت قراها بين خضرة مرجها كالدرّ بين زبرجد مكنون

وجميع ما يقال فى ملذات الجنة ،وهل هى من جنس ملذات الدنيا أو أنهاغيرها وقد ضُرِبَتْ ملذات الدنيا لها مثلا — يقال فى نار جهنم وأسباب العذاب التى فيها : أهى نيران وأسباب من جنس نار الدنيا وأسباب التعذيب التى فيها ؟ أم أن نيران الدنيا وأسباب عذابها ضربت مثلا لنار الآخرة ؟ — كل ذلك لانقطع القول فيه قطعا ، وإنما نؤمن به ونكل أمر الكنه والحقيقة فيه إلى الله تعالى . وهذا يكفى فى سلامة عقيدة المسلم مادامت عقيدته تسير به فى طريق المخافة من تلك النار ، فيمتثل أمر الله ، ويمارس الطاعات ، وينتهى عما نهاه الله عنه ، ويجتنب السيئات . أما إذا لم يفعل ذلك ، ولم تنهه عقيدته عن الفحشاء والمنكر — فإنه لا يفيده بل لا ينجيه اعتقاده فى جهنم مهما اعتقد فيها ، وفى نوع نارها ، وأفانين عذابها ؛ إذ العبرة فى الاعتقادات الدينية لآثارها المتجلية فى الأعمال والأخلاق وطهارة النفوس ، وليست العبرة فيها لكلماتها المردّدة فى الأفواه والمرقومة فى بطون الطروس .

﴿هذا﴾ إشارة إلى ما قصه علينا من خبر ذلك الظل الجهنمى[1] ، ووصف شرره العظيم —واقع وكائن لامحالة يوم القيامة ، وهو ﴿يوم لاينطقون﴾ أى لاينطق فيه أولئك المكذبون ولا يتكلمون كلاما ينفعهم ، أو يدلون بحجة تنقذهم . فليس المراد نفى النطق عنهم بجملتـه ، بل نفى النطق النافع المفيد ، إذ أنهم يوم القيامة يتكلمون ، كما قال تعالى (ثم إنكم يوم القيامة عندر بكم تختصمون) و(قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) ، و(ربنا أخرجنا منها) فى نظير ذلك . وهذا كما تقول لمن تهدّده : "إنك إن خالفتنى وفعلت ما نهيتك عنه فلا كلام ولا عذر" تعنى لا شىء منهما بمسموع منك ولا بمقبول ، وإلا فقد يُكثر ذلك المذنب وقتئذ من الثرثرة ، وإيراد المعذرة بعد المعذرة .

---

(١) هذا على قراءة "يوم لا ينطقون" بنصب يوم ، أما على قراءة الرفع فالإشارة إلى وقت وقوع العذاب الذى وصفه ؛ ليصح الإخبار عنه بيوم . وما قاله المؤلف تلفيق من الوجهين مع تقدير متكلف . المصحح .

وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

وكذلك هم يومئذ ﴿لا يؤذن لهم﴾ فى أن يعتذروا أو يدلوا بحجة عن أنفسهم . وما الفائدة فى الإذن لهم بذلك إذا كانت لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل ؟ ولكنهم مع ذلك ومع عدم الإذن لهم بالاعتذار تراهم يندفعون بسائق الطمع فى الخلاص والحرص على السلامة ، وبمقتضى الجبلة البشرية إلى الإكثار من الكلام وسرد الحجج والمعاذير من دون ما فائدة كما قلنا ، فقوله تعالى : ﴿فيعتذرون﴾ معطوف على (يؤذن لهم) ونفيه مسلط عليه ، والمعنى لا يكون لهم إذن ، كما لا يكون منهم اعتذار . و نفى الاعتذار هنا كنفى النطق فى (لا ينطقون) من حيث إن المراد فيهما كليهما نفى النطق النافع ، ونفى الاعتذار المفيد الناجع ، وإلا فهم ينطقون ويعتذرون ، كما يفعل عادة المذنبون المخصومون .

وإنما لم يقل [فيعتذروا] بالنصب ويجعل الفاء للتسبيب ، لأن ذلك يوهم أنهم إنما لم يعتذروا لأجل أنهم لم يؤذن لهم فى الاعتذار ، وأنهم لو أذن لهم لاعتذروا العذر المسموع .وهذا غير مراد ، وإنما المراد أنه لا عذر لهم كما لا إذن لهم ، فالفاء لمطلق العطف لا للتسبيب . هذا مع ما فى رفع (يعتذرون) من رعاية الفاصلة وموافقة رءوس الآى ،وهو غرض صحيح ، فى تأليف أجزاء الكلام الفصيح .

وذهب بعض المفسرين — وهو منقول عن ابن عباس أيضا — إلى أن للناس يوم القيامة مواطن ومواقيت ، فقد يتكلمون ويختصمون فى موطن ، ولا يتكلمون ولا ينطقون فى موطن آخر . وقد يؤذن لهم فيلقون معاذيرهم فى وقت ، ولا يؤذن لهم فلا يعتذرون فى وقت آخر .

و[اليوم] فى كلام العرب كثيرا ما أريد به مطلق الوقت ، لا بياض النهار بعينه بين الشروق والغروب ، وذلك إذا أضافوه إلى فعل لا استمرار له ، فيقولون مثلا أزورك يوم يقدم فلان . يريدون وقت قدومه ولو كان قدومه فى الليل . وقال شاعرهم :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

أراد باليوم مطلق الزمن والوقت ، ولم يرد حصة منه معينة .

وبالجملة فإن الخطب يوم القيامة شديد ، وويل المكذبين محقق أكيد ، فنسأل الله السلامة ، من أن نقف موقف حسرة أو ندامة .

هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ

﴿ هذا ﴾ أى ذلك الوقت الذى لا ينطق فيه المكذبون ولا يعتذرون هو ﴿ يوم الفصل ﴾ أى يوم الحكم الفصل . ومعنى كون الحكم فصلا أنه لا شفاعة فيه ، ولا رجوع عنه ، ولا تعقيب له . أو المعنى أنه يفصل فيه بالحق بين الخلائق ؛ فلا يمكن لواحدٍ منهم أن يقول : إنه ظُلِم ، أو لحقه حيف أو بَخْس .

ثم زاد ذلك اليوم إيضاحا وكشفا عن حقيقة حاله فقال : ﴿ جمعناكم ﴾ فيه أيها الأقوام المتأخرون فى الزمن لموعدكم الذى كنا وعدناكموه فى دار الدنيا . ﴿ و ﴾ قد جمعنا أيضا معكم ﴿ الأولين ﴾ المتقدمين فى الزمن عليكم من الأمم ؛ لنحكم بينكم جميعا . فها نحن أولاء قد وفينا لكم بذلك ﴿ فإن كان لكم كيد ﴾ وحيلة تتوسلون بها إلى النجاة والخلاص من عقوبتنا التى أوعدناكم بها كما كنتم تزعمون فى دار الدنيا ، وتتعالون به وقت أن كانت رسلى وأنبيائى تخوفكم من هذا اليوم وتحذركم أهواله — ﴿ فكيدون ﴾ أى فكيدونى ، واحتالوا على ، واعملوا على الخلاص من يدى إن قدرتم . وهذا توبيخ لهم على ما كان منهم فى دار الدنيا من الكيد للأنبياء ، والتكذيب بالوحى وتسجيل عليهم بالخزى والعجز والاستكانة . و[الكيد] المكر والحيلة . و[كاده] مكر به ، واحتال عليه ، وحاربه ، وأراده بسوء . و[كاد للأمر] احتال له ، وحاول الوصول إليه بمختلف الطرق والأسباب .

لا جرم أن حيلة هؤلاء الكائدين تكون يومئذ باطلة ، وتعلاتهم داحضة زائلة ، ويكونون مستحقين للويل والهلاك جزاء تكذيبهم الوحى ، وعصيانهم أمر الله .

قوله : ﴿ إن المتقين الخ ﴾ وارد على عادة القرآن فى تصنيف المخاطبين ، والمعاقبة بين أحوالهم ومختلف أطوارهم ، فلا يذكر حالا إلا أعقبه بضده ، ولا يصف ما يكون لفريق إلا أتبعه بذكر ما يكون لقسيمه : يلون الخطاب فى ذلك ، ويتفنن فيه ما شاء ، تطرئة للكلام فى الأسماع ، وبلوغا إلى ما يريد من إحداث الرغبة أو الرهبة فى النفوس ؛ فهو فى هذه الآيات يعدد ما هيأه لأهل طاعته فى دار الثواب من صنوف البهجة والخفض والنعيم ، بعد ما عدد ما يكون للمكذبين من

فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾

ضد ذلك ؛ فقد ذكر أولا أن المكذبين سيأوون إلى ظل لا كالظلال ؛ فهو لا يقى حرا ، ولا يدفع عطشا ، ولا يجد المستظل به مما يشتهيه لراحته ودعته سوى شرر النار الهائل فى شكله العجيب فى أمره .

أما فريق (المتقين) المصدقين بالوحى فهم على العكس ﴿ فى ظلال ﴾ ممدودة عليهم ، يتقلبون تحتها فى صنوف الراحة والغبطة والجزل . وليست هى كالظلال الجهنمية التى يأوى إليها فريق المكذبين . ﴿و﴾ كذلك المتقون هم فى ﴿عيون﴾ . ومعنى كونهم فيها أنهم قريبون منها وعلى حافاتها بحيث لا يعسر عليهم الشرب والتناول منها أىَّ وقت أرادوا . وليسوا هم كفريق المكذبين الذين لا يكون لهم تحت ظلهم إلا شدة الحر وفرط العطش .

وذكر [العيون] هنا ربما أيد ما قاله " قطرب " من أن المراد باللهب فى قوله السابق "ولا يغنى من اللهب" العطش . ويقال رجل لهبان أى عطشان ؛ فيكون قوله هنا (فى ظلال) مقابل لقوله ثمة (ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل) ، وقوله (وعيون) مقابل قوله (ولا يغنى من اللهب) أى العطش؟ وقوله ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ مقابل قوله : (إنها ترمى بشرر كالقصر) ، أى إن المكذبين إن كانوا لا يتساقط على رءوسهم من جوانب ظلهم وشعبه المنخرقة سوى الشرر المحرق والشواظ الموجع فإن المتقين لهم فى ظلالهم الممدودة فوقهم فواكه وثمار تساقط عليهم ، ويتناولون من أنواعها ومختلف أصنافها ما اشتهوا وأحبوا .

ويشبه أن يكون عَطْفُ قوله (وعيون وفواكه) على قوله قبله (فى ظلال) — من قبيل قول الشاعر : "وزججن الحواجب والعيونا" ؛ فإن التزجج أى الترقيق يكون للحواجب ولا يكون للعيون ، والمقام يعين أن يكون التقدير " وكحلن العيونا " ، وكذلك هنا ؛ فإن استقرار المتقين وتبوأهم إنما يكون فى الظلال الممدودة من فوق رءوسهم ، ولا يكون التبوؤ فى العيون الجارية ، ولا فى الفواكه اليانعة ؛ فيتعين أن يكون التقدير " انّ المتقين يقيمون فى ظلال ويشربون من عيون ويأكلون من فواكه"، وهذا الحذف من لطيف إيجاز القرآن ، وعجيب إدماجه . أما على التوجيه الأول الذى جعل فيه متعلق الجار واحدا فالتقدير هكذا : إن المتقين يمرحون فى صنوف من نعيم الجنة : ظلال وعيون وفواكه ، وربما كان هذا التوجيه فى تفسير الآية أعلق بالبلاغة وأدنى إلى الصواب .

كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾

وقوله تعالى : ﴿كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون﴾ فيه أيضا شيء من الإيجاز والإدماج: إذ التقدير : إن المتقين مستقرون فى تلك الظلال ، مقولا لهم : (كلوا واشربوا الخ) ، وليس المراد من ذلك أمرهم بمجرد الأكل والشرب والاقتصار على لذواهما ، لأن ما كانوا يعملون من الطاعات ويعالجون من المشقات فى سبيل رضاء الله أكرم وأكبر من أن يكافئهم ربهم عليه بالأكل والشرب وحدهما ، وإنما هناك ملذات وصنوف من النعيم لا توصف ولا تحصى ، ولا يُدْرَك كنهها كما فى الحديث القدسي " أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " — يؤمر أولئك المتقون الصالحون فى الدار الآخرة أن يتمتعوا بها ، ويتناولوا منها ما شاءوا وأحبوا ، وهذا كما تقول لابنك المطيع وقد أسديت إليه نعما وأيادى "اذهب يابنى" ، كل واشرب وتمتع بهذه اللذوى جزاء برك بى وطاعتك لى" وأنت تريد إظهار الرضا عنه ، والثناء عليه بما كان منه من الطاعة والبر ، وإعطائه الحق فى أن يكون حرا مطلق السراح يفعل ما يشاء ، بعد ذلك النصب والعناء ، ولا تريد قط أن يكون الأكل والشرب هو كل همه ومنتهى حظه من تلك النعم والأيادى التى أسبغتها عليه ، وقد مر فى تفسير قوله تعالى : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) فى سورة الحاقة — زيادة تفصيل وإيضاح لما قلنا هنا فراجعه ثمة إن شئت[1] .

وقوله : ﴿إنا كذلك الخ﴾ يريد إنا كما جزينا المتقين بما ذكر من صنوف الراحة ، وأنواع الدعة والنعيم فى جنان الخلد إثابة لهم على ما كان من طاعتهم لنا فى دار الدنيا — كذلك نجزى ونثيب كل محسن متق مطيع على إحسانه وتقواه وطاعته : لا نضيع لعامل عملا ، ولا نبخس لأحد حقا ، فالويل بعد هذا لمن كذب وَحْينَا ، وخالف أمرنا ، وعصى رسولنا .

وقوله : ﴿كلوا وتمتعوا الخ﴾ خطاب للمكذبين الذين أنذرهم فى ختام الآية السابقة بالويل والهلاك إن هم أصروا على تكذيبهم . وليس المراد من (كلوا وتمتعوا) حقيقة الأمر بالأكل والتمتع ، وإنما المراد به التهديد والوعيد ، فهو يقول لهم : (كلوا) ، وارضوا من حياتكم الدنيا بتناول المطاعم والمشارب كما هو شأن البهائم التى همها علفها ، وملء كروشها ، وهى لاهية عما يراد بها ، (وتمتعوا)

(١) فى صحيفة ٨٤ : من هذا الكتاب .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾

كيف شئتم بالملذات ، وتقحم الشهوات ، تمتعا أو زمنا ((قليلا)) ، وهو مدّة أعماركم القصيرة فى دار الدنيا ، ((إنكم)) أيها المكذبون ((مجرمون)) . وقد سن الله للمجرمين قبلكم سننا لا تتبدّل ونواميس لا تتخلف . وهو تعالى آخذ بكم مأخذهم ، فيمهلكم فى غفلتكم ، ويمدّكم فى طغيانكم ، حتى إذا جاء موعدكم نكّل بكم ، وأقرّ عين العدل بالانتقام منكم .

فقوله : (كلوا وتمتعوا) يفيد التهديد والوعيد ، كما يفيده قولك لآخر وقد نهيته عن أمر فلم ينته — : " افعل ما تشاء ثم انظر ما يحل بك" ، ولا تريد بذلك طلب الفعل منه ، بل تريد أن البلاء نازل به إن أصر على المخالفة .

ويشبه أن يكون أراد فى قوله : (كلوا وتمتعوا) التقريع والتعيير الذى أراده الشاعر فى قوله :

إنى رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
وإذا تُذوكرت المكارم مرة فى مجلس أنتم به فتقنعوا

وربما أوهم مجىء قوله : (كلوا وتمتعوا) فى خطاب المجرمين بعد قوله : (كلوا واشربوا هنيئا) فى خطاب المتقين — أنه خطاب للمجرمين فى دار العذاب الأخروى ، كما أن خطاب المتقين يكون فى دار النعيم الأخروى . وليس الأمر كذلك ، لقوله فى خطاب المجرمين (قليلا) ، أى أكلا وتمتعا قليلا ، فيكون مفعولا مطلقا ، أو مدّة وزمنا قليلا ، فيكون ظرفا ، وعلى كلا الإعرابين لا يناسب أن يقع هذا فى خطاب المجرمين وهم فى دار العذاب؛ لأن أكلهم وتمتعهم إنما يوصف بالقلة فى مقداره أو فى زمنه إذا لاحظناه واقعا فى دار الدنيا الفانية ، لا فى دار الآخرة الخالدة : التى يأكل المجرمون ويتمتعون بما فيها من طعام الزقوم وشراب الغسلين تمتعا وبيلا ، وزمنا طويلا لا آخر لها ، ولا ينتهيان عند حدّ .

((و)) من جملة صفات هؤلاء الجاحدين المكذبين الذين استحقوا الويل ونزول العقوبة الإلهية بهم كما نزلت بالأمم قبلهم — أنهم ((إذا قيل لهم اركعوا))، أى اخشعوا لله تعالى وتواضعوا له ، ودعوا هذا الزهو والعجب والاستكبار — ((لا يركعون)) ، ولا يتواضعون ولا يخشعون ، بل يصرون على زهوهم واستكبارهم، فالركوع هنا بهذا المعنى لا بمعنى التحية والانحناء على الركبتين للصلاة : يقال ركع إلى الله إذا اطمأن إليه وخضع .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد به ركوع الصلاة، فالمعنى : إذا قيل لهؤلاء المكذبين : صلوا إلى الله مع جماعة المسلمين ، وشاركوهم فى إخلاص العبادة له ، واخلعوا الأصنام والطواغيت التى تعبدونها — أَبَوْا واستكبروا . وإباؤهم الصلاة لله تعالى بعد أمر النبى لهم بذلك ما هو إلا تكذيب لنبيهم بما أبلغهم إياه من وجوب الركوع لله ، على أن نبيهم صلى الله عليه وسلم ما كان ليأمر بالصلاة من عند نفسه ، فامتناعهم عنها هو فى المعنى عصيان لأمر الله ، وتكذيب لخبر الله ، فكيف لا يكون هؤلاء المكذبون مستحقين للويل والعذاب ، يوم العرض والحساب ؟

ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وقد أسلمت يوم فتح مكة : كيف ترين الإسلام ياهند ؟ قالت : "بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، حسن لولا ثلاث" . قال : وما هنّ؟ قالت : "التجبية ، والخمار ، ورقىّ هذا العبد الأسود على ظهر الكعبة" . والتجبية الركوع ، ويطلق على السجود أيضا ، وتعنى بالعبد الأسود سيدنا بلالا رضى الله عنه مذ يعلو الكعبة للأذان ، فأجابها صلى الله عليه وسلم بقوله : "أمّا التجبية فلا صلاة من دون ركوع ، وأمّا الخمار فهو أحسن ستر ، وأمّا الأسود فإنه نعم العبد هو" .

وكان سادات قريش يرون الركوع والسجود من أشد الأمور عليهم ، وذلك لفرط تيههم ونخوتهم ، ولذا قال بعض هؤلاء وقد أبى الإسلام : "والله لا تعلونى استى" . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم أمر وفد ثقيف بالصلاة ، فقالوا : "لا نخنى ، فإنها سبة لنا" ، فقال صلى الله عليه وسلم : "لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود" ، على أن الاسلام إنما جاء لترويض النفوس العاتية وتذليل أنفتها .

وكان نساء الجاهلية يكثرن من التبرج وإبداء الزينة ، وقد اعتدن ذلك ، ولذا استعظمت السيدة هند إلزامهنّ باستعمال الخمار ، ووجوب ترك التبرج المعتاد لما فيه من ستر المحاسن ، وكذلك استعظمت أن يطأ سيدنا بلال الكعبة بقدمه والعرب كانوا يجلونها كثيرا ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم أشار فى الجواب إلى أنّ المؤمن الصالح كمثل بلال أفضل من الكعبة ، لا سيما إذا كان يدعو إلى الله ، وإلى عبادته الخالصة من شوائب الوثنية ، وفى قوله هذا سدّ لذريعة عبادة الكعبة التى ربما كانت تخالج نفوس بعض العرب .

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

ثم إن هؤلاء المكذبين إذا لم يؤمنوا بهـذا الوحى السماوى والحديث الإلهى الذى خاطبهم به ربهم على لسان نبيهم — ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ ﴾ لا حديث ولا كتاب سماوى يبلغ ما بلغه القرآن من صدق اللهجة ، ونصوع الحجة ، ووضوح المحجة ، فإذا كذبوا بالقرآن ، ورغبوا عن هديه ، وزهدوا فى وعظه ونصحه — كانوا عن غيره أرغب ، وفى وعظه ونصحه أزهد .

وهكذا يقضى هؤلاء المجرمون أعمارهم : لا ينتفعون بحـكمة ، ولا يستضيئون بنور ، ولا يستهدون بدين ، حتى يأتيهم اليقين ، وينادى عليهم يومئذ (ويل يومئذ للمكذبين) .

قال مؤلفه : فرغت من هذا التفسير بياضا صبيحة يوم الجمعة الواقع فى ٩ محرم سنة ١٣٣٨ الموافق لليوم الثـالث من أكتوبر سنة ١٩١٩ فى مدينة دمشق الشام ، وأنا بهـا نزيل ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

تم طبع هذا الكتاب فى ٢٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٧
(الموافق ٢ من فبراير سنة ١٩٤٨) م

مدير عام المطبعة الأميرية
حامد خضر

المطبعة الأميرية ٢٣-١٩٤٦-١٥٠٠٠